الكتاب الأول

عين شمس

« الشعر من الشرارة »

بوشين

الباب الأول

الأرض الطيبة

—

عين شمس ، أو الريف الفرنسى فى مشارف القاهرة ، بلدة طيبة ، وعيش رغيد . كلما ألقيت البصر أمتعتك جنة الريف المصرى السعيد . أين منها « رفائيل » ومنقاشه وسحر بنانه ؛ رفرف خضر ، وطرائق قدد ، لها فى التاريخ شأن أى شأن .

فواحة عين شمس أو « هليوبوليس » فى تعبير أجدادنا الفراعنة ، هى من قديم العصور مهبط القوافل القادمة من الشرق ومن الشمال ، تدق أبواب العاصمة فتنيخ قليلا ، ثم تغذ المسير إليها فى رياض معشبة وحدائق غلب وحياض رواء . تتراقص فى صفاء الأفق ، كأنها نظم الدر أو حبات العقد يزدان بها الجيد المديد للقاهرة . وتختال فيها قصور سروات مصر وأثريائها من قصر القبة أو مقر الملك ، إلى قصور يوسف كمال ونعمت مختار وشيوه كار . هنالك تضرب المسلة الشهيرة بروقها فى كبد السماء . تروى آثار مجد الآباء وتنبىء الأبناء عن أخواتها القائمات فى ميادين « باريس » و« نيويورك » و« لندره » ، بين سرقات ، أو عطايا ولاة ، ضنوا بها أن تقوم فى ساحات حواضرنا .

وعلى مبعدة أمتار من المسلة تكاد تستمع نفسك إلى خطرات

أثر آخر هو « شجرة العذراء » يحج إليها الحجيج من كل فج عميق ، ليريحوا حيث أراحت « العائلة المقدسة » ويتناجوا مع الماضى مناجاة الإيمان والاطمئنان .

وإلى جنبها بقايا المعابد القديمة التى خلفها « سنوسر الأول » و« أمنحتب الأول » تنظر الينا من أربعين قرناً ، وآثار « تل الحصن » حيث ينتهى البصر بقناة الاسماعيلية ، أو طريق المعاهدة ، ينساب كالحية الرقطاء بين القاهرة وأعمال منطقة القنال .

فيا له من مكان عجيب ! اجتمعت عنده معاهد تاريخنا الغابر ومتاعب جيلنا الحاضر من أجل القناة ومن أجل المعاهدة ...

ويا لها من محلة مباركة تهيء فكر صاحبها للمسئوليات السياسية بحكم ميلاده وبحكم مقامه ... !

فى خواتيم القرن الماضى لم تكن الألوان المونقة ولا البيوت الفارهة قد زينت وجه هذه الزبرجدة الخضراء . فلم يكن فيها إلا منازل قليلة ، يقيم فى أحدها الأستاذ الإمام « محمد عبده » ، وإلى جواره المستر « بلانت » المستشرق الإنجليزى الذى أرخ للثورة العرابية فأنصفها ، ثم مسكن خاص « للخديو عباس » يقيم فيه مع زوج أجنبية ، ثم منزل « أحمد بك عصمت » ... رحل إليه بعد أن اشترى ضيعة فيها قصران المرحوم « أحمد صادق باشا » صهر المغفور له « عبد الخالق ثروت باشا » .

وتوثقت عرى المودة بين « الأستاذ الإمام » وجاره كما توثقت بين الجار وبين ثروت باشا أواصر الصداقة والألفة حتى قضوا .

كان أحمد بك عصمت مهندساً فرنسى الثقافة عصبى المزاج ، انطوائى النزعات ، هو الابن الوحيد لأبوين ورث عنهما مالا وجاها . فكانت

حياته حياة نظرائه من أعيان البلاد وأماثلها ، لولا ما تميزت به من تعليمه العالى ومشروعاته الخاصـــة وهواياته العلمية والعملية ولعب « البلياردو » ومخترعاته ... فهو يخترع تصميم قاطرة يبعث به إلى انجلترا فيعود إليه دون أن تقبله دور الاختراع ، فيبقى القطار حبيساً فى غرفات داره . لـكنه يخترع جهازاً للتقطير ، غير كبير ، يسبك له فى باريس ، ويبقى يقطر العطر ، حتى يقضى نحبه ، ويخترع آلة جبارة للطحين وللرى تخرج المـاء من أعماق الآبار ، وتطحن الحب لساكنى عين شمس ، وتبقى الآلات الضخمة سنوات تخدم الناس وتدر المـال وتذكر الأولاد الصغار بطراز المخترع الذى قضى .

وانتقلت أفـكار عصمت بك إلى بنى سويف فأقام إلى جوار دار الحـكومة ما أسماه الناس « خان الخليلى » فى بنى سويف ... عمارة كبيرة المساحة من دورين ، وصفين متوازيين ، يفصل بينهما فراغ ضيق يكشف عشرات الدكاكين للسماء ، فـكانت سوقاً فذة بطرازها ، وبقطانها ... من مصورين أوربيين يرسمون بيع الصعيد ومعابده ، إلى تجار ذهب أو مصـــانع لبن ! إلى عطارين وخياطين وغيرهم من المتنافرين والمتشاكلين ... ويشترى الرمال الصفراء من الصحراء ، بمئات الجنيهات للفدان ، ويطلق مشاريع الفاكهة فى هـذه الواحة أول من يطلق ، ويستحضر إليها نبات المـانجو من الهند ، ويستورد « أشجار التوت » من قبرص فتنمو حتى تسد طريق سكة الحديد ، ويختصم فيها ومصلحة سكة الحديد ووزارة الزراعة فيبعثر آلاف الجنيهات فى هذه النزاعات ليبقى لإرادته سلطانها ، ولمصر هذا النوع العظيم ذا الثمار الـكبيرة الذى تدين به له .

وينتقل من زراعة الفاكهة التى كان ينافس فيها وزارة الزراعة إلى تربية الحيوان ، فتزدحم حدائقه بعجائب الحيوان ، من حديقة

بتمامها للنعام ، إلى أقفاص للطيور ، وللإيمو ، وللنسانيس ، وغيرها مما آل بعد وفاته إلى حديقة الحيوان بالجيزة .

أقبل المهندس الشاب على الطبيعة أيما إقبال ، كما أحب العلم والعلماء وحيي حياته قسمة بين رفقة الشيخ محمد عبده ورواد داره من العلماء وزراعاته المستحدثة وخدمة خاله وصحبته .

كان خاله الفـــريق — (المشير) — « عبد القادر حلمى » حاكم السودان العظيم وناظر الحربية ، يخلصه بخالصة من مودته حتى ليوصى إليه بالوصاية بعد وفاته على بنيه ، ويرحب به بعلا لكبرى بناته ، وأبرزهن فى العلوم واللغات وأوفرهن حظاً من الجمال . ويقضى الأشهر الطوال من كل عام بعين شمس يلتمس العافية فى أعطاف الهواء الجاف ، ويسرح الطرف فى أعمال ابن أخته من زراعة البساتين وإعداد أرض الصحراء لتكون أرض بناء ، تزيد ثراء صاحبها أضعافاً بعد سنين .

وكان « عبد القادر حلمى باشا » مفخرة وادى النيل جميعاً فى آخرة القرن الماضى وفى فاتحة هذا القرن ، فهو فى عقيدة الشعب وفى التاريخ بطل السودان ، القائد المصرى الذى استقال من الوزارة لامتناعها عن استرجاعه . وكان على ثرائه العريض وآلاف الأفدنة التى يملكها ومكانته فى مجلس الشورى : معقد أمل الوطنيين فى البلاد بعد الاحتلال

ذلك بأنه كان البطل العسكرى الوحيد من أبطالنا الذى لم يشرد أو يجرد ، إذ شاءت عناية السماء أن يكون مستغرقاً فى حروبه الخالدة بمصر الجنوبية بالسودان ، فى حين كان « عرابى » يحارب فى مصر الشمالية بالغرب وبالتل الكبير ، فلما أسر « عرابى » سكت صوت مصر فى الشمال ولم يسكت صوتها فى الجنوب . ولم يأخذ الخديو على بطل الجنوب اشتراكه فى عمل ضـــده ، فظل مطلق السراح ، يرمقه المواطنون بالإجلال ،

ويتناقلون ذكرياته فى السودان، وابتهال المهدى والدراويش لله ليعصمهم منه بعد أن ولوا الأدبار فى كل لقاء ، فكانوا يصلون ويدعون عقب كل صلاة بقولهم : « يارب ياقادر اكفنا شر عبد القادر » .

لم تكد تصطفيه وزارة سامى البارودى لقيادة السودان ، حتى رحل فى مايو سنة ١٨٨٢ ، وأنقذ الجزيرة من الثوار ، وقاد الجيوش المصرية فى معارك خاطفة مظفرة فى « مشرع الداعى » و « معتوق » .

ولم يكد يرفع الأعلام المصرية المظفرة حتى جاءته أنباء الشمال عما سمى معركة التل الكبير فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فلم يتراجع بل تابع معاركه فى يناير وفبراير سنة ١٨٨٣ .

ولما منع الانجليز أن ترسل اليه الذخيرة ، وأن تدفع رواتب جنده لينهزم، واصل زحفه تحت مسئوليته لحساب الوطن، لا لحساب الحكومة، وكان لا يدبر الخطط فحسب ، بل كان فى قلب الجيش وعلى رأسه ، ورحى الحرب تدور ، فأصيب فى جنبه فى معركة « مشرع الداعى » وكسرت ساعته ، لكنه واصل الحرب . فأبى الإنجليز إلا أن يعينوا بدلا منه أحد مرؤوسيه ، بل ألغوا نظارة السودان التى كانت له ، وأعيد من الخرطوم فى أبريل سنة ١٨٨٣ . ولما عينه الخديو فى وزارة « نوبار » ناظراً للحربية ، عقب إلغاء نظارة السودان ، لم يلبث إلا يسيراً حتى استقال وحده من الوزارة فى سنة ١٨٨٧ لعدم استرجاع السودان

فى ظلال هذه الذكريات كانت الأسرة تعيش ، وفى جوارها المستر « بلانت » والشيخ « محمد عبده » — التلميذ الأكبر « لجمال الدين الأفغانى » ، والأستاذ الأكبر « لسعد زغلول » ، والمحرض الأول على التطوع للدفاع عن الوطن ضد جيوش الاحتلال فى صحيفة « الوقائع الرسمية » التى يرأس تحريرها ، فلما حوكم مع زعماء الثورة العرابية نفى ثلاث سنين ،

قضاها ، وأربعاً بعدها ، بين « دمشق » و « باريس » ، حيث أنشأ مع أستاذه جمال الدين صحيفة « العروة الوثقى » للدفاع عن الإسلام ، فلما عاد إلى الوطن تقلد منصب الإفتاء ، وتزعم « مدرسة الإحياء الاسلامى » لتربط التقدم الاسلامى بأسباب الحضارة المعاصرة .

فكانت حياة عصمت بك فى ذكريات أولاء ، ورفقة هؤلاء ، وفى الواقع ، حياة عامة على رغم صاحبها .

وإنك لواجد بداره إلى جوار « قاعة البلياردو » الكبيرة ، والقاعة التى كانت تحوى مائة وعشرين عصاً مختلفات ، من ذهب أو خشب أو جلد أو عاج إلى بيض نعام وجلود سباع ونمور وأنياب أفيال ، تلك المكتبة التى خلفها فى ثلاث قاعات فساح ملئت مصاحف تركية وعربية ، بين حديث وعتيق ، ومخطوط ومطبوع ، كان يقرأ فيها العلماء الذين يغشون الدار ويتدارسون مع صاحبها أصـــول الدين ، وكتبا علمية هندسية أو تاريخية أو أدبية أو شرعية بالفرنسية والعربية ، بلغت نحو ألفى كتاب بينها بعض الكتب التاريخية مجلدة بالجلد الفاخر لما تضمنته من شروح لفتوح خاله فى السودان ، (كحقائق الأخبار عن دول البحار لاسماعيل سرهنك باشا) و (السودان بين يدى غوردون وكتشنر لابراهيم فوزى باشا) و (السودان لنعوم شقير) و (يوميات غوردون) و (السيف والنار لسلاطين باشا) . ثم ذلك المجلد الثمين المسمى « شجرة النسب »

بل إنك لواجد إلى اليوم صور فاتح السودان فى شتى مواقفه ، وملابسه ، وتشريفاته ، فى كل غرفة من منازل أحمد عصمت .

بهذه الظروف العائلية اتصلت أسباب الأسرة بالواقعة الأخرى من مواقع تاريخنا ، فأضحى السودان والاحتلال مجالا خصبا للخيال ، عند

من كان فيها صاحب خيال ، واجتمعت له بحكم مقامه فى طريق القناة وبحكم ميلاده ، أسباب الاتصال الروحى ، والفعلى ، والعائلى ، بشتى النزاع فى قضيتنا مع الإنجليز .

وبقيت فى ضمير الزمان وآجل الأيام ، تهيئة البطل الجديد من أبطال هذه الأسرة ، للجهاد والمستقبل .

انقضت حياة عصمت بك فى سنة ١٩٢٦ عن خمسمائة فدان ورثها عن أبيه « محمد بك عصمت » وسبعين فداناً اشتراها هو فى عين شمس . وحدائق حيوانه ! وخان الخليلى ! والمكتبة ، ودواليب الرى والطحين والتقطير ، وغرائب المخلفات ، وذكريات مجد .

وكان « محمد بك عصمت » من عمال الخديو « إسماعيل » . آخرة وظائفه وكيل مديرية بنى سويف ، شهد النور فى « بلدة زاوية بلتان » من أعمال القليوبية أحد أولاد « الشيخ حسنين شادى » وكان شيخاً للمنطقة عند توزيع الزمام بعـــد موت محمد على ، فأصاب ثراء عظيما توارثه بنوه وأحفاده ، تتعالى به فى سماء الزمان « شجرة نسب » ذات فروع كثر ، تنتهى إلى قبيلة بنى مخزوم فى جزيرة العرب ، وتحتفظ الأسرة بها فى الغالى من مقتنياتها

أنجبت للمهندس الشيخ زوجه . وكان نسله منها فتاة ، لكنه كان يهوى البنين ، ويتخير لنطفه ، فأصهر - عندما دنا أجله - إلى أسرة بياض الشهيرة العربية الأصول فى الفيوم ، وولدت له زوجته الجديدة بنتاً أخرى ، ثم غلاماً فغلاماً أسماه أحمد ، فى ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، لم يحل عليه الحول أربعاً حتى فارقه أبوه فى الحياة الدنيا ثم فارقه أخوه .

* * *

نشأ أحمد من حداثته يتيما كما ينشأ الأنبياء ، غير مقتر عليه فى الرزق

كأبناء الأثرياء . لكنه كان يحس من يتمه كالصاب غصاصة . فسيطر عليه الحياء إلى جوار الانطواء الذى ورثه .

هو ذا فى مدرسة الجزويت (العائلة المقدسة) تلميذ فى طليعة أقرانه تحمله سيارته الخاصة اليها ومنها صباح مساء ، حتى إذا أوى إلى داره قضى وقته فى غرفات أبيه أو مع الجنانين ، بين أحراش النعام وأقفاص الحيوان وأشجار المانجو وزهور الداليا والزنبق والجلد يولا معكوفاً عن الناس .

فإذا صور فوق الهرم تبدى لك يرفع رأسه ويدفع صدره وهو حدث ، وإذا رسم بين أقرانه من تلامذة الجزويت وضع ، وحده ، على رأسه طربوشه كأنه العلم المصرى بين الأجانب .

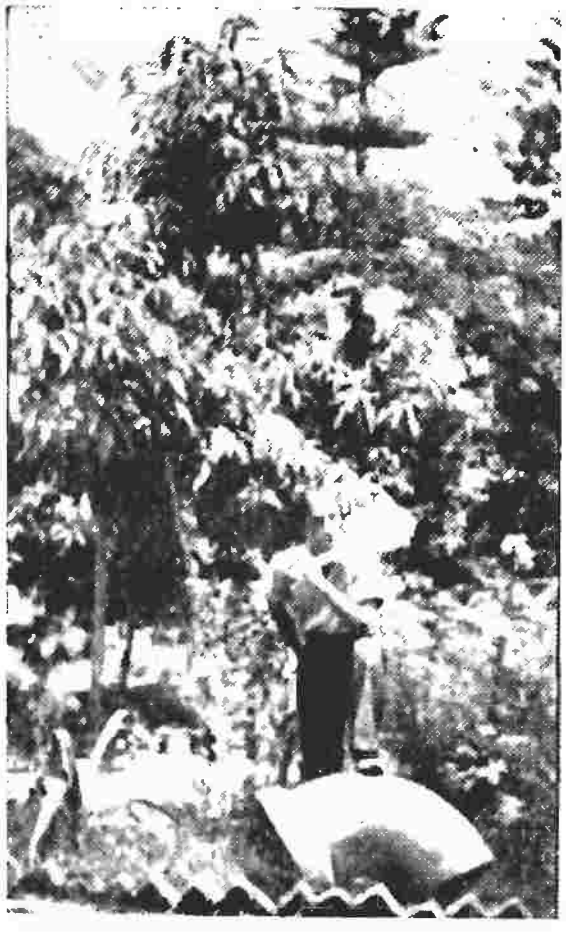

لاعب التنس

حتى إذا أتم دراسته فيها حمل الشهادة الابتدائية فى نحو الثانية عشرة من عمره مبرزاً بين الدارسين مجيداً للفرنسية حافظا أسير أشعارها وأذهبها على الألسن من شعر « راسين » « وكورنى » « وفكتور هيجو » « ولامارتين » ومن نثر « بسويه »

لكن فى دراسة الجزويت تضييقا ، وفى الفتى نزعة غلابة إلى الحرية . فلم يكد يحرز الشهادة حتى انطلق بين النقيضين إلى الجامعة

الأمريكية حيث يعامل التلاميذ أساتذتهم معاملة الزملاء. وإذا الفتى النابه في دراسته الابتدائية، والذى كان يتألق ذكاء وألمعية، قد أخذ يتعثر جده إلا فى رياضة التنس، فصار يشار اليه فيها بالبنان بين الفتيان، ثم عرف التدخين فصار له عادة لم يفارقها فكانت كبرى هناته، ولو أنه لم يكن يدخن أكثر من ٢٠ سيجارة فى اليوم كما جاء فى أوراق القومسيون الطبى فى ٣٠ من سبتمبر سنة ١٩٥١ .

وكان يطرق أبواب الثامنة عشرة ومن حقه أن يدير أمواله، فترك دروس الجامعة إلى دروس الحياة. وإلى المطالعة فى مكتبة أبيه ـ فقرأ كتبها الهندسية جلها إن لم تكن كلها. وبعض كتب الطب، أما كتب التاريخ الاسلامى والفرنسى فالتهمها التهاماً. وكان التاريخ المصرى موضوعه المفضل. يحمل كتبه الفرنسية والعربية عند السافية وتحت تكاعيب العنب وفى كل مكان.

كانت متاعب الفتى فى ذلك العهد فوق مستوى حدث لم يكد يطر شاربه بعد، لكن الذين شهدوه فى هذه الأثناء استبانوا فيه أصالة تعلو على المعلومات والتجارب ـ فلقد تولى إدارة أشيائه بغرائز عارمة تلتمس النجاح، وهو بين زراعاته فى مصر أو المديريات وبين قضاياه موزع، لكنه مقتدر، قربت سياراته القوية بين القاهرة وتلك الديار. ويحميه شباب قوى وشمائل ضمنت له محبة الخلطاء وصفاء ود العشراء. إذ كان معطاء لا يكاد يعرف الأخذ. فإذا تعامل عامل متعاليا لا مساوما ولا مماكسا، لا يكفيه أن يترك الناس تعيش، بل كان يهنيه أن يجعل الناس تعيش معه أو من حسابه. يترك قدراً لا يقل عن خمس الإيجار عند تحديد الأجرة لمستأجريه فى غالب أمره وقد يصل إلى الثلث، لأن لهم بيوتاً تعودت أن تعيش من إجارة أرض آبائه وأجداده. لكنه

يقتضى بعد ذلك حقه كاملا لا ينقص دانقاً ليعود مستأجريه الدقة معه . ولكم كان كبيراً فى عاطفته دقيقاً فى حسابه .. !

تحدث بطائفة من الحديث عن واحد من مستأجريه فإذا هو قد جامله فى بضع ستوات بسبعة آلاف جنيه ، وكان يستغرق فى التفكير ويقول من حبه له ، ومع ذلك فالشيخ يستحق معونة أكثر ،

ولما مات كان كبار مستأجريه أعلى الباكين نشيجاً وكاد أحدهم ، وهو من أقدم عمد البلاد ، تبيض عيناه من الحزن .

تمرس الشاب بقيادة السيارات منذ الثانية عشرة وتداولت يده بضع سيارات درس آلاتها ونحى سائقه عن أن يقود له ، وقصره على القيادة لأسرته فى عربة أخرى .

كان يذهب إلى الريف ويعود فى جوف الليل وحيداً ، ويخوض إلى أسفاره غرائب الطرق فى الصحراء ، يدفعه شبابه إلى اقتحام المكاره والمخاطر وإن كانت قد ظهرت عليه أيامئذ ظاهرة تبدو لغير الملم بطبعه غريبة ، تلك أنه بعد أن كان يقود سيارته وهو تلميذ بسرعة خاطفة أخذ يقود باطمئنان واتزان واعتدال . ولم يكن قد عبر حدود العشرين فى هذه الفترة حتى أتقن استعمال الأسلحة بكل أصنافها ، فكان يخرج للصيد مع زملائه إلى الفيوم حينا ، وإلى الشرقية حينا وإلى البركة غالبا (قريبا من عين شمس)

ويعود من عمله أو رياضته ليرتاد حدائقه الواسعة اللفاء ويصطاد ، وفشا فى الناس إتقانه استعمال السلاح فلم يتسلق أسواره، أو يقتحم داره على تخوم العاصمة ، غير مغامر من بدو الصحراء .

وفكر فى الزواج قبل أن يبلغ التاسعة عشرة . وكان معروفا بيساره

فى الصيد

مرموقا لما فيه من خولة الرجولة واستقامة الطباع وبساطة السن المبكرة مما يغرى بالاهتمام به والإصهار اليه .

قيل له إن وزيراً من أبناء الأمراء ، يود لو أصهرت اليه . فطوى كاشحا يقول : إذا كنت أريد الزواج فسأتزوج ، ثم تبسم ضاحكا وقال « إننى أريد أن أتزوج ولا أريد أن أتوظف » ! وأخذ يهيء لزواجه الأسباب ،فلما صار اليه كامل أمره استكرم الأصول من الأسر الشهيرة فى جيرته وعشيرته ،فأعرس بحليلته ،وراح يبنى أسرته الخاصة فى مزاج من اليسر وخفض الجناح والإقبال على الحياة. وترامى لعشرائه أن الزواج وانتظار الاولاد وإدارة المال ستكون منتهى مناه .

أقبل الفتى على داره الصغيرة يعب من طمأنينته ومن هناءته عبا كأنما دنياه دنيا من الاحلام . يولد له ولد إثر ولد وبنت ثالثة فى السنوات الاولى من زواجه ويتخير لهم المربيات من المانيات ومصريات

ويحمل هداياه إلى أهله وبنيه فى تلك المناسبات والدنيا العريضة أضيق من أن تسعه . ويطيل القعود إلى مربية أولاده ينصحها ويبجلها كما تبجل الجدات .

وهذه عربات صغار وقطر كبار ، وطائرات ومسدسات وسيارات لبنيه ، ثم هذا مسكن أنيق للمربية الالمانية ، وهكذا سلخ من حياته أياما كانت متعة لمراقبها وجنة الخلد لصاحبها .

* * *

وما أن رفع عن كاهله عبء الأوصياء ، حتى أدار وجهه إلى قضاياه ، يصنع فيها ما صنع بحدائق أبيه ، التى عقد الإهمال أمرها ويسر هو عسرها فالوصى من أهله معترف له بآلاف ، والغير من الناس محكوم عليه ببضعة آلاف أخرى ؛ والوصى الأجنبى فى ذمته بضعة آلاف غيرها فيقول : لا أرب لى عندهم ، ولن تذهب نفس حسرات على المال ، فقد عفا الله عما سلف .

قيل له إنك متلاف ... فأمسك هنيهة ثم انطلق يقول « إننى أتهم فى المودة بالإتلاف ، والحق أننى لا أترك مالا بل أسباب خلاف ، وأستبقى علاقات الأخوة والبنوة وبعض الراحة » وابتسم يقول « بالعطاء نأخذ » ثم قالها بالانجليزية « Sir by giving we take...By giving we take » وراح يسأل : « ما رأيك فى ابتسامة الطفلة فلانة؟ ألا تساوى ألف جنيه مصرى من الذهب ! ! » ثم يقول « لعل ذلك أقسط وأعدل » .

واستطرد فى نظرية إزالة الخلاف إلى منتهاها فلم يبالى فى أعتبره حزبا على حزب ، أن كان هناك فريق أولاد عبد القادر حلمى (باشا) وحفدته ، وفريق هم الأقربون ، فكان هواه مع (جماعة الباشا) يزورهم ويلين لهم ، وبعد أن كان فى طفولته لا يراهم ، أضحى فى رجولته يقضى أيامه

وإيمانهم . فإذا عضتهم الأنامل الدربة دفع عنهم واعتنق قضاياهم . بما فيه من قصد ولصقة .

والتفت إلى حدائقه خطف فى قسمات وجهها خطوطاً بارعة من سمات العصر . فنزع وجمع وحول وبدل وأصلح . فأسفرت كالوجه الملثم بعد إذ أميط عنه لثامه . أو الصفحة المقروءة بعد أن كانت لا تملك خطوطها . وعلى الحق حملت وجه هذا الفتى السمهرى القامة الواضح القسمات .

والطلق على أثر أبيه ينثر الذهب من جديد . فى بضعة وعشرين فداناً من أرض المساكن . يقوم الواحد منها ببضعة آلاف . تملأها أشجاراً وأسواراً . وأخرج الزرع شطأه معجلا . واستوى على عوده . فأينعت الصحراء على يديه ، وأورق الجبل على أعين الناس وهم لا يكادون يصدقون . لولا أنهم يشهدونه مسربلا بسراويلاته تحت شجيراته . فى حمارة الحر أو صبيارة القر ، ينبش بيده وكأنما يلثم كل شجرة ويقبل تراب الأرض المصرية التى كان يعبدها .

تحت شجيراته

وكأنما كان يحس عليها وطأ أقدام أبيه . وكان يؤرقه التحنان دائماً إلى آبائه .

كان يكثر الاختلاف إلى خلصائه وأصدقاء أسرته تحت هذه الشجيرات ، يناقشهم فى

السياسة الدولية والداخلية وهوشات الأحزاب ، مناقشة رجل يقرأ الصحف الإنجليزية والفرنسية والمصرية اليومية والأسبوعية والشهرية ، ويستمع إلى كل محطات العالم ولا يبرح ذاكرته أن أباه كان قرة العين لخاله عبد القادر حلمى ، وصديقاً لمحمد عبده ، وعبد الخالق ثروت ، وأن حمد الباسل وكيل « الوفد المصرى » وأحد رؤسائه ، وأحد الذين نفوا مع سعد إلى مالطة سنة ١٩١٨ ، كان زوج خالته ، فتتلاقى فى ذاكرته أخلاط من الذكريات عن أصول ومصادر ورجالات له بها صلات بذل كل منها جهده فى الدفاع عن الوادى ضد عدو واحد مشترك هو الانجليز .

وكانت الحرب العالمية الثانية دائرة الرحى ، فكانت أحاديث اليوم تدور حول كرة الأرض ، ومصر ميدان المعارك الحربية والفساد السياسى ، تصلى نار جهنم من تدخل الانجليز ، وتغيير وزاراتها والاعتداء على سلطاتها . فى حين تلوى بطون بنى الوطن من الجوع سبع سنوات عجاف كسبع يوسف .

وكانت عين شمس ملتقى الطرق إلى مناطق الجيش المحتل ، ومهربا لكل من باع سلاحاً من الأسلحة الإنجليزية والألمانية والإيطالية ، وهو أظهر الملاك فى عين شمس . يفد إليه عماله وبدو الصحراء القاصون والدانون بالسلاح من كل مألوف ومُغرب . فيتخير منها ما ينفعه ويصدف عما لا نفع له فيه . فصار حجة فى الصيد وفى السلاح وأسعار السلاح وتعليم استعماله . حتى أفراخه الصغار كان يحاضرهم فيه ليفهموا ما يحيط بهم وبه ويعيشوا ، كمثله ، فى جوه . وما أشد ما كان فيه من رائحة سلاح ، وخراطيش ، وأصوات قذائف .

وفى سنة ١٩٤٠ كان فى الحادية والعشرين والتمس لديه صديق صار

من بعد نائباً عاماً ، أن يشير عليه فى شأن من شئون السلاح فأشار عليه وأحضر له . وكان رجال البوليس المحليون يعلمون خبرته فى السلاح . بل لعل بعضهم كانوا يشعرون بأنه فى حجرات لديه . ولكنهم كانوا يقدرون مكانته وأمانته فلا يسألونه .

ومن بعد ذلك بأعوام كانت حدائقه ، وحدائق أخرى بإزائها مستودعا لسلاح استعمل أكثره المتطوعون فى حملة فلسطين . وكان لتمكنه من أمور السلاح يصلح الأسلحة الفـــاسدة . ويزاوج بين قطعها مزاوجة الخبير . أفضل الأسلحة عنده السلاح الألمانى . أما بنادق الطليان فلم يك يأبه لها .

وغلبت عليه طبيعة المهندس التى ورثها . فكان يصلح بيده سياراته وآلات الرى الخمس فى أرض عين شمس . وتتداول أنامله دقائقها تداول الميكانيكى الثقة . يدرسها على الطبيعة . وفى محال البيع . وفى كتب الهندسة من مكتبة أبيه . ويعلم عماله عليها عملهم . ويراقبهم . فيدهش جيرانه ، كما يدهش أقرانه . بما فتح الله عليه من « هندسة تطبيقية » .

الباب الثانى

محقق المشروعات الكبيرة

تزخرفت الدنيا وازينت للفتى السعيد ، فتراءت هناءة نفسه فى قسمات وجهه وبسمات فيه ، كأن البلهنية أو الرفاهة لم تعبر عن نفسها بأوقع من إشارات يده أو حركات رأسه أو خطرات نفسه وانبعاثات وجدانه .

ولما أقبل على أن يبنى لنفسه داراً جديدة ، كان ذلك هو التعبير المنطق عن نفس قادرة على الكثير أوفت على الغاية ، وكأنما أعطيت مفاتح الأرض بالرضا والقناعة ، فلم يبق أمامها إلا أن تبنى إطاراً للمعانى التى سعدت بها ، فى دار تسع الأسرة الوادعة الراضية بما قسم لها ربها .

ولقد طالما يفكر الرجل فى أن يبنى الدار بعد أن يسلخ من سنواته الأربعين والخمسين والستين ، وعلى ذلك تستفحل نزعة البناء عند الشيوخ وتندر لدى الشباب .

لكن الشاب الذى لم يبلغ الثانية والعشرين ، كان قد بلغ بنفسه مكاناً عليا استقر عنده ؛ فرأى أن يبنى لنفسه دارها ، ولم يجد خلطاؤه فى ذلك عجباً ، لأنهم عليمون بقدرته على أن يوفر المال لكل مشروع أراده ، وإن كان قد شرع فى البناء وليس لديه منه وفر ، فإن عاما واحداً

من الاستقامة ، والمقدرة على التنفيذ ، وتدبير شئونه، طوع له أن يشيد تلك الدار .

كان مسلماً أنها ستكلفه بضع آلاف . فاقترح عليه أن يقيم صرحها فى أحياء القاهرة حيث يتناطح أولو اليسار بشواهقهم ، كأنما يضربون فى السماء بروقهم ، وزينت له الأسماء والأصقاع فقال : أريد أن أبنى فى أرضى ، حيث شهدت النور، وجرت قدمى وقدم أبى وأهلى من قبلى .

كان يضن بذاته فيستعلى على أن يقتحم عليه أحد خصوص نفسه ، وفى الوقت ذاته يريد أن يبقى حيث هو ، فلا يوغل فى خصوص غيره منافسا أو مدعيا ، أو لعل ذلك كان بعض انطوائه .

وكما يدل أسلوب الكتابة على الرجل ، وأسلوب العمارة على العصر ، دل أسلوبه على ذاته . إذ شاد هذه الدار الأنيقة وحاطها بأربعة آلاف متر حديقة فيحاء يتضوع منها العطر فى كل الأرجاء ، وتتألق عيون أزهارها الضاحكة فى كل ركن ، على جانبيها عشرات الأفدنة من حدائق الفاكهة له ولذويه . وكأنما تنطق بأن صاحبها لا مطمع له من نعيم حياته ، إلا أن يحفظ الله له نعمة الاستقلال .

وراح يدخل فيها ما يستطرف من أساليب الحضارة الحديثة ومتاعها فكانت فى داخلها داراً أمريكية الجهاز وفى خارجها مصرية عربية الطراز .

فى ذات يوم أخطره أهله أن إحدى شركات السينما أقبلت تصور داره لتعرض مناظرها فى أحد الأفلام ، وكانوا يعلمون عزوفه عن أن يحر إزاره فى الناس خيلاء . فسألوه أيأذنون للشركة أم يعتذرون ، فأجاب فى سماحته المطبوعة أن يمكنوا المصورين مما طلبوا سواء أكانت الحديقة أو كانت أبنية الدار على ألا يصوروا أشياء الأسرة الخاصة ... ثم خف اليهم يقول ما خشى أن يعجز أهله عن الإدلاء به . وظهر البيت فى فيلم « المصرى أفندى » تحفة رائعة .

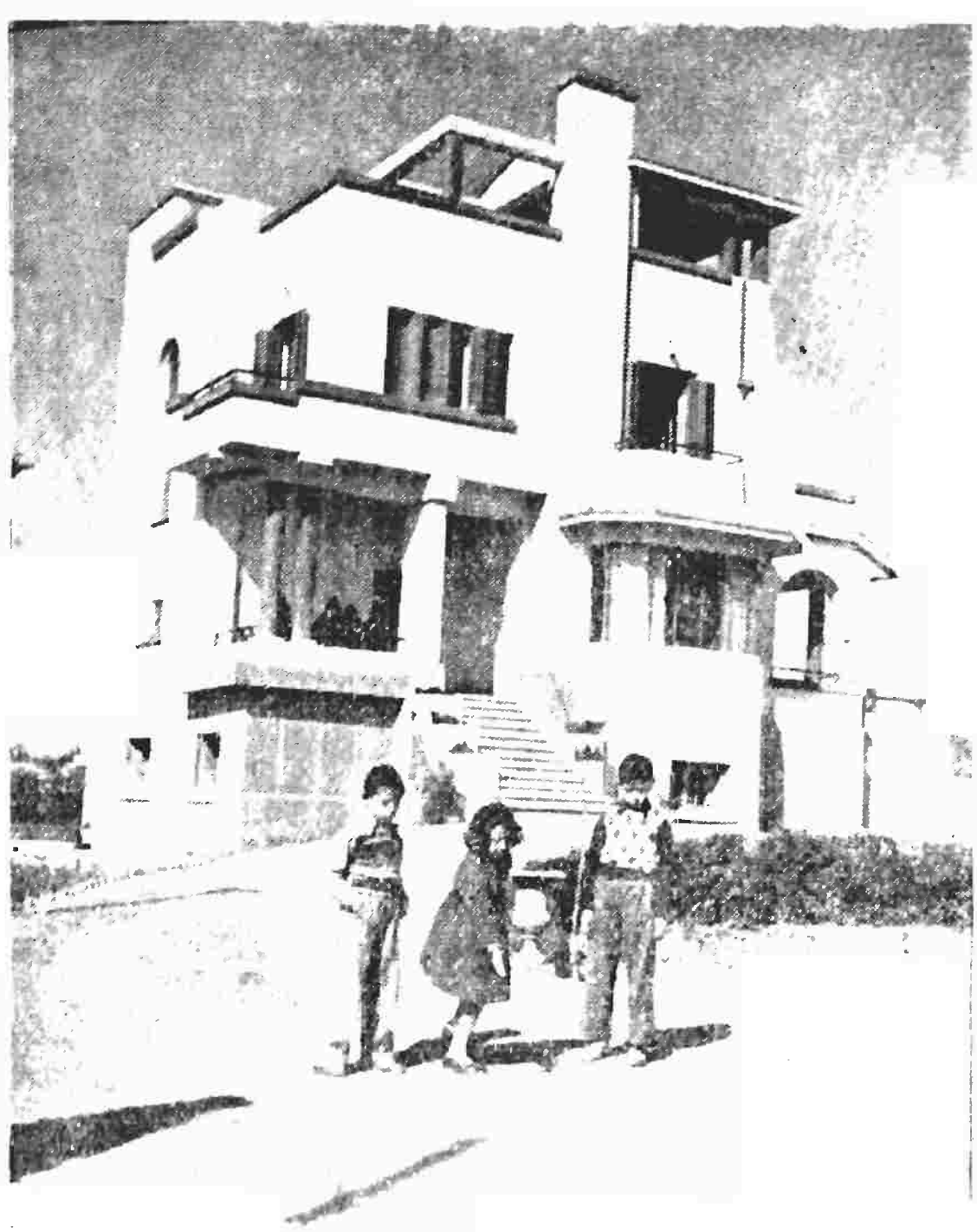

زهرات ...

كان البناء آية انسجام حياته الداخلية واستقرار حياته الخارجية حقا، لكن ما فيه من نزعة التقدم وجهه إلى أن يتعلم الطيران . ولعل مرد ذلك إلى أن القعود ليس من طباعه . أو إلى نزوعه لأن يكون سعيه فى السماء .

دخل مدرسة مصر للطيران كما دخلها معه أو من قبله ثلة من الشبان

والأعيان ، تخلفوا عن الدرس واحداً بعد آخر ، لكنه لم يتوقف أو يتخلف يوما واحداً ، بل كان يذهب فى غير الساعات المخصصة له ليتعلم مع غيره فوق الساعات المخصصة له ، فى مصابرة ومثابرة يسرتا له البدار فى تمام تعليمه .

ولم يكد يحرز شهادة الطيران حرف « ا » حتى عينته شركة مصر للطيران بين طياريها بأجر جنيهات معدودة .

كانت هذه الجنيهات عنده خزائن الأرض من مال قارون ، تذوب نفسه جذلا إذ تصل إلى راحتيه ! ومع أن مرتبه فى الشهر لم يزد على خمسين جنيها فى أيامه الأخيرة ، كانت تكلفه قريبا منها سيارته التى تقله إلى المطار ، غير مرة فى النهار ، فقد كان يقبض أجر الطيران على استحباب ولو كلفه الطيران أكثر من ذلك الأجر لأنه كسب يده ، لا كسب جده ولا ميراث والده .

التمست « شركة الخطوط العالمية للطيران » مراقبا المطار لقاء مرتب كانت جملته أربعة أضعاف ذلك المقدار ، وكان من أغراضها أن ينتدب لذلك طيار مصرى من طراز خاص فوقع عليه الاختيار ، ولما عرض عليه الأمر طلب من نقل العرض اليه أن لا يبت فيه إلا غداتئذ ، فقال وفيم الإرجاء ؟ إذا كان العمل فى أرض المطار فإنى رافضه . إننى أريد الطيران نفسه ولو دفعت مثل ما يعرضون .

ثم اقتضت معاهـــدات الطيران ألا يطير إلى الخارج على الخطوط الدولية إلا طيارون يحملون شهادة « ب » فى الطيران ، ولم يكن طبعه يحتمل إلا أن يتجهز لعمله بأحسن جهاز وأكمله ، للإتقان الذى كان مفتاح طباعه ، فعلى هذه القاعدة أتقن دراسة الآلات الميكانيكية لما تعلم قيادة السيارات ، وتعددت عنده آلات الرى .

ولما أخذ يخرج للصيد لم تنصرم شهور حتى صار من أمهر الرماة . ولما لعب التنس صار معلما بين فريقه ، ولما زرع الأشجار تزود لزراعتها بكتب أبيه وبالكتب الحديثة ، فهو لا يقارب عملا إلا أتقنه ، ولا يرضى أن يعمل له أحد عملا إلا كل حجة فى فنه .

فإذا استعان بطبيب فإن طبيبه مدير الجامعة . وإذا وكل محاميا فإن وكيله هو « الخلباوى » النقيب الأول ، أو غيره من النقباء والأساطين ، وإذا اشترى سيارة فهى « الباكار » أو « الكريزلر » أو « الدستو » ، لقوتها لا لأبهتها ، وإذا اقتنى حائكا أو بائعا أو صانعا لم يرض بغير من بلغ الذروة من تجويد صناعته وإتقانها .

تجلى فى دراسته لشهادة «ب» فى الطيران بما فى دمه من ميل إلى الهندسة ، وحببها إليه أنها كانت دراسة الدقة وحسابات الأبعاد ومهاب الريح ، هندسة خالصة وجبراً وحسابا ولوغريتمات ، فكرس ساعات فراغه لها وأحال الدور الأول من بيته مدرسة للطيارين ، يحمل إليها الأساتذة والتلاميذ ضيوفا ، وتشترى الكتب من مصر أو انجلترا ، أو باريس . وطاوعته اللغات الثلاث التى يتقنها . وكان بنوه يصطافون فى الاسكندرية ويبقى هو فى القاهرة من أجل دراساته صيفا بعد صيف ، وإذا سئل عنه فى المسرة رد أبناؤه إذا كانوا فى رفقة معلمهم أن أباهم هو الآخر مع « حضرة معلمه » ! ويدين له الأمر فيمنح الشهادة فى طليعة طالبيها .

قال الممتحن لزملائه إننى فى حرج إذ أمنح هذا الفتى هذه الشهادة ، فهو أصغر الطيارين سنا والشهادة تطوع له الرحلة على الخطوط العالمية عبر المحيطات ، لكن إجاباته تجعلنى فى حل .. فمنح الشهادة بعد تردد .

أما معلمه فى الطيران الليلى فسيقول يوما والدموع تنهل على خديه :

« لقد خسرت مصر هذا الطيار ولم تخسره شركة مصر وحدها . ومن المؤكد أن الزمن لن يجود بمثله قبل خمسة عشر عاما » .

كانت رحلات الطائرة فى خارج مصر وداخلها تملأ قلبه حبا لها . فالطائرة تحلق فوق مصر فتريك وجهها الأصيل كما برأه الله بملامحها الثابتة على الزمان ... النهر يجرى كشريان الحياة فى الوادى ، نخلة باسقة سمراء تهز رؤوسها الخضراء فى الدلتا ، وعلى جانبيه حراس أقامهم أباؤنا من قديم الأزل ، هم المعابد والأهرام والآثار والقصور الخوالد ، تحمل الينا مشعل الحضارة وتضىء لنا يقيننا فى أظلم عصور الشك فى قوتنا . وتقول المصريين وللغزاة جميعا : مصر باقية . وتذيب عصاراتهم أو حضاراتهم فى حضارتها . . . وما هى إلا ألوان مصر الأصيلة فى قيمها العليا ، وطابعها القومى ، وخصائصها الباقية ، وسمائها الصافية ، ومياهها الزرقاء ، ورياضها الخضراء ، وصحراء الذهب . لا يلقى الطائر عوجا ولا أمتا ، فوق محورها من القاهره إلى الخرطوم ، إلا أن تكون إحدى أسرها القديمة قد أخرجت قلبها ، هبة منها الأجيال اللاحقة ، فى شكل هرم .

ركب النقراشى معه إلى الأسكندرية ذات يوم وكان يخاف الاغتيال السياسى ، فلم تكد الطائرة تحلق فى الجو حتى شعر أن الباب قد انفتح ، فبعث مساعده يحكم رتاجه فانفتح مرة أخرى ، فبعثه أخرى . ورجع إليه يقول إن الباشا لا يريد أمامه باباً مغلقاً ، فكلفه أن يغلق الباب على الباشا . فلم يكد يفعل حتى انتقل رئيس الوزراء إلى غرفة القيادة . فلما بلغه قال له فى إسماح وخفض جناح « ليت الباشا يرجع مكانه » قال « وهل ثم ما يمنع أن أكون هنا » قال « إن الأصول تمنع وفى عودة الباشا طمأنة لزملائه الراكبين » ، وسيطرت ابتسامته وطهارة قلبه على قلق الرئيس . . فلزم مكانه .

وما صنع أحمد إلا ما يصنعه دائماً من التزام الدقة فى القيام بعمله مع إلزام غيره نفس الحدود ، ولو كان الخارج عليها رئيس الوزراء .

° ° °

حمل الطيار الصغير الأجنحة المصرية فى آفاق الخطوط العالمية رفرافة فى أعالى القمم من معاهد الحضارة الحديثة . فكان أمل شركته وزملائه ومعقد رجاء الرؤساء . يستعجلون قيامه من « جنيف » ويرفض هو المخاطرة بالطائرة فى أحوال جوية سيئة ، محاججاً بقوله : إنكم تريدون اقتصاد الساعات وأنا المسئول عن اقتصاد الأرواح . والرأى فى المفاضلة معروف ، فلم يكونوا يملكون جواباً .

وإذا أقبل الطيارون بعضهم على بعض يتلاومون ، قلب الأمور لزميل يستحب أن يوصف بالجرأة « لأن المجازفة بأرواح الغير ليست شجاعة ولا براعة ، وإنما قيادة الطائرة عمل هندسى كاستعمال السلاح ، من أشراطه الاحتياط . والحكم فيه للحساب وحده » .

ولقد كانت تكرث الكوارث عالم الطيارين فيتدارس مع أترابه تقاريرها ، ولا يذر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعلم مأتاها .

من أجل ذلك لم يحدث له حادث واحد فى سنوات عشر ! وكان رؤساؤه يندبونه للرحلات التى تعلن عن مظهر الشركة فى الخارج أو تحتاج براعة فى الهبوط والصعود .

عاد مرة من « صنعاء » اليمن بخنجر ملكى قدمه له « ابن الوزير » يوم ولى الملك بعد مصرع « الامام يحيى » . فكان يتخذ ذلك الملك القاتل سخرياً ، ويقول ان فى هذا الخنجر رائحة الدم ... ويريك الخنجر ويقول : أنظر فذلك قطرات دم ... هى ذى قطرات دم . تكاد تتكلم

وفى ذات يوم عبر البحر الأحمر إلى الخرطوم وبينما هو يهم بالهبوط من سمائها خذلته الطائرة ، أن خذلتها عجلاتها عند التدلى ، وكان ذلك عيباً تكشف للشركة فى بعض طائراتها من قبل ، ثم لها علاجه من بعد ، وكان قد اتخذ مظهراً خطيراً من نحو أسبوع فوق سماء بيروت .

طافت الرؤى بخياله فى سماء الخرطوم فذكر كعادته ربه ، وملك ـ كدأبه ـ إربه ، وأخذ يدرس موقفه فى السماء . وتوالت الاتصالات اللاسلكية بينه ، فى سماء السودان المصرى ، وبين شركة مصر فى مطار القاهرة ... قال « إن جهاز العجلات تعطل كما سبق فى الأحوال المماثلة وسأحاول إنزاله بضغط السوائل » واستعمل الزيت المعد لذلك فلم تهبط العجلتان . وتتالت الموجات فى سماء مصر وسودانها . يقول لهم « نفد الزيت ولم يبق أمامى إلا الماء وسأفرغه من الثلاجة » وسال الماء إلى جهاز العجلات ، والجهاز لا يستجيب ، حتى فرغ الماء ، واقتربت الساعة ، فلم ينخلع فؤاده رهباً . بل راح يداعب على الموجات اللاسلكية الجالسين على كراسيهم فى القاهرة بقوله « والآن لم يبق إلا زجاجات الكوكاكولا » ثم قال ضاحكا « أحاول الآن بالكوكاكولا Trying with Coca Cola » وأمر فصبت الزجاجات التى أعدت ليشربوها .

ونفدت الزجاجات إلا بعضا ونزلت عجلة واحدة واستعصت الأخرى ، وهو كعدم نزول العجلتين معا أو أشد ، لأن انقلاب الطائرة من جرائه على الجانب الآخر مؤكد ، إلا أن تحدث السماء معجزة . وأهل على الركاب فى مظهره الذى كان يتجلى فيه دائما . . وجه باسم يفيض رجولة ومقدرة تنقل الثقة إلى سامعيه . قال : إنى سألجأ مع مساعدى إلى التحليق فوق المطار حتى يفرغ الوقود . وعند ذلك سأكون قريبا ـ

لم يبق إلا الكوكاكولا

حق قريب ـ من الأرض . وهكذا يكون هبوطنا على عجلة واحدة أمراً لا خطورة فيه . فإذا كان ثمة مخطرة لم تكن إلا تهشما يسيراً فى الجناح . وشرط نجاحنا أن نصنع ذلك جميعا معا . فلا تضطربوا فتخلوا بتوازن الطائرة عند النزول ... وحومت الطائرة المصرية فى سماء الخرطوم على ارتفاع خفيض ، حتى ينفد الوقود ، ولا تتعرض للحريق ، وكان بين زملائه واحد قدر له من قبل أن يسهم فى حادثة « بيروت » فقال له أحمد « أرأيت القاعدة الجديدة للنزول وهى إفراغ البنزين أقرب ما تكون إلى الأرض ، على غير ما صنعتم فى بيروت . فهل تسلمون أنها أقل ضرراً وأكثر فرصا » ؟ قال « بلى » . قال « ومع ذلك نجوتم هناك » قال « إذن سننجو هنا »

وأخذ يسيل دعابة كانت تجيئه دائما فى المواقف ذات المفارقات . قال زميل بيروت « وكنا هناك فى ضيق ونحن هنا فى مرح وتلك قاعدة

أخرى ، واستمروا تطلع أعينهم بين الفينة والفينة على المضخات تتجمع من كل أرجاء الخرطوم ، فى انتظار الحريق عند الهبوط ، حتى دنت ساعة العسرة وهم إلى الثرى أقرب ما يكونون ، ونزلت الطائرة ، ما شاء الله ، على عجلتها اليسرى . وكأنما سخرت لها الريح تجرى رخاء حيث تصيب ، فجرت من خفة صدمتها على أرض المطار ، كدمى الأطفال على قدم واحدة ، لم تتكفأ ولم تتكسر . . . ! وهتفت مصر والسودان للأبطال الذين كللوا الأعلام المصرية فى السودان بالفخار .

ولما هبط أرض مصر ، جرى التحقيق ساعة لم تكد تنقضى حتى طلب له المحقق علاوة تقديراً لبراعته .

فى هذه الحادثة من حوادث السماء صورة مصغرة لحياة أحمد عصمت على الأرض . قوة أعصاب ، لا تهاب ، وثقة فيه ، وثقة منه ، وعقل حسابى ، وبراعة نادرة فى التنفيذ ، وقيادة فريق

ولقد كان الله معه دائما لأنه كان دائما مع الله . يذكره فى الآزفة ، حيث يولى العقل أو تتحكم النزعات أو يضرى الصبا والفراغ والجدة ، أو فى مباهج الليالى المشرقة فى « روما » « وجنيف » أو العطلات الطويلة فى « الريفييرا » . . . ذلك الطهر الذى لم يعرف الخمر ، ولم يقترف الميسر . فلم يدخل الخمر داره ولا أوراق اللعب ، على كثرة ما دخلها فى رفقته الشباب الذين يشربون ويلعبون من زملائه